الجامعة بين المهمة والرسالة

د / سفيان ميمون*

ملخص :

نحاول من خلال هذا المقال أن نبين الدور الذي يمكن أن تؤديه الجامعة باعتبارها مؤسسة اجتماعية مهمة في المجتمع، وذلك من خلال التمييز بين مهمة الجامعة ورسالتها ،حيث تتصل المهمة بالأدوار العامة التي يفترض أن تؤديها الجامعة ،من تكوين معرفي وعلمي وإعداد وتأهيل للإطارات وبحث علمي ..الخ ،أما الرسالة فإنها تتصل أساسا بالجوانب المعنوية المتصلة بالثقافة والهوية ، أي أن الدور الأساسي للجامعة لا يقف عند حدود التكوين والتأهيل والبحث ،ولكنه يتعدى ذلك لبناء مشروع مجتمعي مؤسس عناصر ثقافية معينة.

Résumé :

L'objectif principal dans cet article est de clarifier le rôle de l'université entant qu' institution sociale . et ce en distinguant entre sa mission et sa function.

- la fonction ; se traduit par les differents rôles techniques remplis par l'université tel que la formation acaddémique et professionelle des cadres futures de la société et la recherche scientifique .

-la mission à son tour consiste à la construction d'un projet communautaire basé sur les aspects culturels dans le but de maintenir la structure sociale en integrant les members de la société dans ce projet à travers les differents processus d'intégration visant à unifier les representations sociales et culturelles sur des sujets bien determines.

*أستاذ محاضر –ب– جامعة محمد الصديق بن يحي –جيجل

تمهيد :

تعتبر الجامعة إحدى أهم المؤسسات الاجتماعية نظرا للدور الذي تؤديه في مجال التعليم والتنشئة والإعداد الفكري والمهني ، ونظرا أيضا للدور المتوقع منها أداؤه خاصة في مجال نقل القيم والمعايير المجتمعية ، من أجل هذا كانت المؤسسة الجامعية وسيطا أساسيا بين الأجيال وآلية من آليات الضبط والتحكم الاجتماعي من جهة والعمل على التغيير والتطوير من جهة ثانية ،ولا شك أن الجامعة شأنها شأن باقي المنظمات الأخرى تبلورت تاريخيا كفكرة قبل أن تكتسب شكلها التنظيمي المعاصر ، وتحمل على عاتقها مجموعة مهام ورسائل تسعى إلى تحقيقها.

أولا – نشأة الجامعة:

يرجع كثير من الدارسين ظهور الجامعة إلى العصور الوسطى في أوروبا حيث تقترب جامعات هذا العصر في شكلها من جامعات عصرنا الحالي ، فخلاله " طورت الجامعات كثيرا من ملامحها التي تسودها اليوم من اسم و موقع مركزي ، و أساتذة على درجة من الاستقلال الذاتي ، و طلبة و نظام ومحاضرات و إجراءات للامتحانات و الدرجات بل حتى كيان إداري "[1] و هو الأمر ذاته الذي بينته الموسوعة البريطانية حيث أوردت أن " الجامعات الحديثة قد تطورت عن مدارس العصور الوسطى التي كانت بمثابة المدرسة العامة ، أي المكان الذي يستقبل طلاب العلم الوافدين من جميع الجهات "[2] .

لقد تركز هؤلاء الطلاب في مراكز العلم الأولى و كانت نشأة المدن عامل جدب و تركيز مهم لما تتطلبه حاجات الجماعة إلى الطب و القانون و الدين و الفلسفة و غيرها ، فبرزت جامعات في جنوب أوروبا و وسطها كجامعة بولونيا في إيطاليا التي اختصت في القانون و جامعة سالرنو التي عرفت بتدريس الطب ، كما كان اللاهوت يدرس في جامعة باريس (السربون) التي اكتست قيمة خاصة ،" و لما كان اللاهوت موضوع الدراسة الأسمى وقتذاك اطلق على هذه المدرسة اسم – سيدة العلوم العليا – "[3] ، و كانت جامعات الشمال كأوكسفورد و كمبردج في انجلترا و جامعات ألمانيا بأسرها تقليدا لجامعة باريس،التي سبقتهم إلى إرساء قواعد تنظيمية و منهجية في التعليم الجامعي ، فيما اتجهت أمريكا إلى تقليد الجامعات و المعاهد الانجليزية .

وبمرور الزمن خفتت شهرة بعض الجامعات كسالرنو و ظلت أخرى شامخة إلى يومنا هذا ، غير أن ما يجب تقريره مثلما يرى جوزيف نسيم يوسف هو " أن جامعة القرن العشرين إنما هي سليلة و وريثة جامعتي باريس و بولونيا في العصر الوسيط ..، لقد ظل التنظيم الأساسي للجامعة كما هو دون أن يطرأ عليه أي تغيير ، كما ظل الامتداد التاريخي قائما متصلا ، فهم الذين خلقوا التقاليد الجامعية المعروفة في العالم الحديث .."[4] .

غير أن المتتبع لتطور هذه الجامعات لا يمكن له أن يسلم ببساطة أن المدن التي تحتضن جامعتي سالرنو و بولونيا هي مركز الانطلاق ، ذلك أن زمن هذه الهبة كان متزامنا مع توافد العلوم العربية على

أوروبا و إقبال الأوروبيين على طلب العلم لدى العرب ،الذين كانوا على عهد بازدهار العلوم المنطقية و المادية على حد سواء ، و في هذا الشأن يقول الدكتور جوزيف نسيم يوسف " على أية حال فقد حدث أن تسرب إلى الغرب فيما بين 1100 و 1200 م سيل عارم من العلم و المعرفة الجديدين، وقد تسرب بعض هذا العلم عن طريق إيطاليا و صقلية ، و لكن الجانب الأكبر منه وصل إلى الغرب عن طريق العلماء العرب في إسبانيا بصفة خاصة "[5] .

و يرى ايدجار فور أن نشأة الجامعات في العصور الوسطى كانت نتيجة لازدهار المدن التجارية التي عمل أعيانها من الطبقة البرجوازية الناشئة على المحافظة على ما تتمتع به من حرية و شهرة بفضل إقامة جامعات في هذه المدن تكون مصدر تلبية للحاجات المختلفة للمدينة بما يضمن بقاء استمرارها ، غير أن " الفضل في هذا الشأن يرجع إلى العالم العربي و الإسلامي الذي انتشرت ثقافته المزدهرة إلى أقاصي آسيا و إفريقيا و أوروبا "[6] .

لقد عرفت الحضارات القديمة التعليم و استخدمته أساسا لقيام حضاراتها تلك ، وعلى هذا يعتبر البعض فكرة الجامعة قائمة مقدما على التعليم الذي أسهم في بناء هذه الحضارات بل وفي بناء الحضارات التي تليها ، خذ لذلك مثلا فلسفة اليونان و قوانين الرومان و أثرهما في الحضارة الأوروبية الحديثة .مع الاعتبار بأن هذه الحضارات هي صنيع الجامعة و علمائها الذين نهلوا من علم و فلسفة و قانون الحضارات السابقة.

ويرجع البعض فكرة الجامعة إلى " أعماق التاريخ فيتتبعها إلى أيام الحضارات القديمة في الصين و بابل و مصر ... ، غير أن البعض الآخر يكتفي بالوقوف عند أكادمية أفلاطون ، أو ليسيه أرسطو ، أو رواق زينون ، أو حديقة أبيقور ليصفها بأنها كانت بمثابة أولى الجامعات حيث كان لكل مؤسسة من هذه المؤسسات رسالة تؤديها ، و معلم يقوم على التدريب فيها و مديرون يقبلون على الاستماع إلى معلمهم .... "[7] .

كما يعتبر الدكتور محمد المهين أكاديمية أفلاطون أول أكاديمية تحمل خصائص التعليم الجامعي فلقد كانت حسبه " أول أكاديمية منظمة يمكن اعتبارها بشكل أو بآخر على أنها درجة من درجات التعليم العالي (الجامعي) و كانت هذه الأكاديمية تدعو إلى الحق من أجل الحق و هي تدعو أيضا إلى حق الفلاسفة في أن يصبحوا ملوكا "[8] .

إن الذي يبني تصوره لفكرة الجامعة على هذا الأساس لا يمكنه بأية حال من الأحوال أن يغفل عهد النهضة العلمية في العالم الإسلامي والتي كانت مرافقة لازدهار التعليم وتطور العلم ،و دليل هذا أن الأزهر الذي بني على يد الدولة الفاطمية في القرن العاشر من الميلاد (970 م) كان بحق جامعة منفردة على الرغم " من أنه لم يطلق عليه اسم جامعة إلا عندما أعيد تنظيمه عام 1961 "[9] ، فضلا عن جامعة قرطبة في إسبانيا خلال القرن العاشر وقبلهما جامعا الزيتونة في تونس والقرويين في المغرب ،حيث كانت كلها

منارات للعلم و أعشاشا لتفريخ العلماء ، كما كان بيت الحكمة في بغداد ،حيث نجد فيه الكثير من مهام الجامعة الحديثة من محاضرات و مناظرات وكتب و ترجمة بإشراف الخليفة المأمون ،" فعلى الرغم من أن نواة هذا البيت تعود إلى " خزانة الحكمة " التي أ سسها والده – هارون الرشيد – فإنه غدا في عهده مجمعا ثقافيا و علميا متكاملا ، حيث اشتمل على قاعات للترجمة و النسخ و البحث و المطالعة و المناظرة و على مكتبة مفتوحة لمن يرغب في العلم ، و اجتمعت في هذا البيت " كنوز الثقافة العربية الإسلامية مع كنوز الثقافات الأجنبية "[10] .

و خلال العصور التي سادت فيها الثقافة الإسلامية كان المسجد يؤدي المهام التي تؤديها جامعة اليوم ،فلقد وصفه طه حسين بأنه " الصورة الأولية للجامعة في الإسلام "[11] كما يقر طه الوالي بأن" المسجد كان يقوم في الماضي بنفس الدور الذي تقوم به اليوم المؤسسات التعليمية الجامعية في حقول المعرفة والعلم و الفكر، فكان منتدى لجميع أنواع العلوم من طب و هندسة و بلاغة و غيرها من العلوم التي ازدهرت في أحضان الأمة الإسلامية ، و الحديث عن كبار العلماء الذين يعتز بهم الفكر الإسلامي كل هؤلاء العلماء بدأو حياتهم العلمية في المساجد "[12] .

و ما يمكن استخلاصه من هذا العرض أن فكرة الجامعة كانت موجودة قبل إحداث جامعات العصور الوسطى في أوروبا ،فجامعات سالرنو و بولونيا و باريس و أكسفورد و كامبردج كانت نتيجة لتدفق العلوم من الشرق ،العربية منها و اليونانية ، هذه الأخيرة لم تكن منبعثة من فراغ و لكن هذه العلوم كان أكثرها منظما – بادئ الأمر – في أكاديميات و جامعات بعينها لا تقل شأنا و لا حتى تنظيما من جامعات أوروبا في العصور الوسطى كأكاديمية أفلاطون و جامعات الأزهر و قرطبة و غيرها .....

ثانيا – مهمة الجامعة و رسالتها :

1- مهمة الجامعة :

هناك من ينظر للجامعة باعتبارها دولة وإن صغرت مساحتها فهي " ذات علاقات واسعة تربط القريب بالبعيد و تؤثر فيما حولها أكثر مما تتأثر بهم ، و تنبع أهمية الجامعة من ذاتها، و يرتفع شأنها من ذاتها و ليس لاعتبارات أخرى "[13] ، فلا شك أن المهام المنوطة بها وحدها الكفيلة بإعطائها هذه الأهمية ، فنجاح الجامعة في أداء عملية التعليم و بذل العلم المناسب والنافع و التدريب على الفكر الناقذ و المتفتح و القدرة على التفاعل مع المؤسسات الاجتماعية الأخرى كلها مهمات تكسب الجامعة أهمية بالغة في المجتمع الذي يحيط بها .

و مهام الجامعة في أدق خصوصياتها تختلف من جامعة لأخرى أو من مجتمع لآخر في أحسن الأحوال، لكنها تلتقي في خصائص عامة تتصف بها جميع الجامعات ، فعندما نعتبر إحدى مهام الجامعة في دولة تريد أن تنمط الجامعة و تجعلها على شكل خاص هو تنمية المعارف لدى الأفراد بما يتوافق وذلك النمط الذي تريد تشكيله فإن ذلك يختلف عن مهام الجامعة في دولة تسعى إلى ترك الحرية كاملة للجامعة

في العمل على اكتساب الأفراد ذلك الفكر الناقد الذي يسمح بأن يزن الأمور بشيء من الموضوعية واالحياد.

و الخصائص العامة التي تلتقي فيها الجامعات أيضا يمكن ربطها بالزمن الذي نبحث خلاله عن هذه المهام و المتطلبات ، و بالظروف العالمية التي هي عنوان التقدم أو التخلف ، و على هذا الأساس قسمت الجامعة إلى تقليدية و حديثة و وفق هذا التقسيم أيضا حددت المهام العامة للجامعة .

فقد حددت مهام الجامعة تقليديا حسب الدكتور مباركي بوحفص بأنها :"[14]"

1/ المحافظة على التراث العلمي و المعرفي للبشرية .

2/ تنمية و تطوير المعرفة البشرية .

3/ تكوين العلماء و الباحثين و الإطارات التي تتولى مسؤولية قيادة المجتمع و تكوين الإنسان الصالح الفعال في محيطه.

و هذه العناصر التي تحدد مهام الجامعة التقليدية تركز على نظرة أحادية و هي بذلك تحصر مهمة الجامعة في جانب من جوانبها ألا و هو جانب التدريس و من تم الأستاذ الذي يعمل على إيصال المعرفة للطلاب بما يمكنهم من الحصول على قدر معين من التكوين ، غير أن النظرة الأحادية فقدت معناها في وقتنا الراهن لأن الجامعة لم تعد الأستاذ فحسب بل تعدت ذلك إلى أطراف عديدة و ارتبطت بمجالات كثيرة في المجتمع يلخصها سعيد التل في قوله أن " التعليم الجامعي هو الذي يعد للمجتمع أطره الإدارية والفنية و العسكرية و المهنية و غيرها و هو الذي يعالج قضاياه و مشكلاته و يطور إمكانياته و يكتشف خاماته و ثرواته "[15] .

و عليه ينظر الدكتور مباركي بوحفص إلى مهام الجامعة في الوقت الراهن على أنها :"[16]"

1/ تعليم النشء و تحضيره للمساهمة في مختلف مناحي الحياة و بالتالي تحضيره لأن يعيش عصره و يبني مستقبله بكل متغيراته .

2/ الحفاظ على التراث المعرفي و العلمي للبشرية و ترقيته .

3/ ترقية حرية الفكر و العقل و القيام بدور "حامي التفكير الحر" و المرجع الفكري للمجتمع .

4/ تطوير التكنولوجيا و توجيهها لخدمة الصالح العام بتطويع أدواتها لتطوير الاقتصاد و الاجتماع و الرفاه و زيادة الثروة و ترقية نوعية الحياة .

غير أن العناصر التي حصل حولها إجماع الباحثين بأنها المهام الأساسية للجامعة المعاصرة حسب الدكتور محمد منير مرسي هي :"[17]"

1/ إعداد القوى البشرية .

2/ البحث العلمي .

3/ التنشيط الثقافي و الفكري العام .

لقد ارتبط إعداد القوى البشرية بمتطلبات الشغل في جميع الميادين و على امتداد العصور التي كانت فيها الجامعة قطبا لطالبي العلم و المعرفة و هي لا تزال كذلك إلى اليوم، و لقد تم التركيز على هذا المطلب لارتباطه بالحاجة الملحة للتنمية الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية ، ولقد ارتبط هذا المطلب في الجزائر المستقلة على سبيل المثال بحاجتها إلى تنمية البنى المنهارة جراء الاستعمار الذي غادر البلاد بإطاراته و خبرائه و فنييه ، و قد حدث أن كونت الجامعة الجزائرية عددا كبيرا من الإطارات فاق احتياجات القاعدة الاقتصادية و الاجتماعية المتوفرة – حتى لا نقول احتياجات البلاد لأن البلاد المتخلفة في حاجة إلى مزيد من المنشآت و طرق و فنيات تسييرها فتكون موازاة مع ذلك في حاجة إلى إطارات أخرى جديدة و مطلوبة باستمرار – إذا و الحالة هذه فإن احتياجات البلاد من الخبرة و المعرفة المتخصصة لم تشبع و لكن ما أشبع و فاق حد الإشباع في الجزائر هو حاجات القاعدة الاقتصادية والاجتماعية المتخلفة التي لا تتطلب كثيرا من هذه الخبرة و المعرفة ، و عليه تفشت البطالة لدى خرجي الجامعات ليس لأن الآلات المتطورة المعبرة عن الاقتصاد المتطور عوضت الإنسان كما هو الحال لدى
الدول المتطورة و لكن لأن القاعدة الاقتصادية ظلت إلى اليوم رغم المشاريع المختلفة للتنمية هشة و ضعيفة فلم يوافق نمو أعداد الطلاب و الخريجين نموا على مستوى هذه القاعدة .

كما أن متطلبات البحث العلمي واحد من أهم مهام الجمعة ذلك أنه موازاة مع القيام بعملية التدريس يسمح بالكشف عن بعض المشكلات و معالجتها كما يؤدي إلى تطور الحقل العلمي و المعرفي و يعمل على تعزيز البنية الاقتصادية و دعم العمليات الإبداعية في مختلف المجالات الاجتماعية ، فالبحث العلمي إذا يعطي الجامعة قيمة خاصة سواء اتجهت نتائجه إلى المجتمع ككل أم بقيت على مستوى الجامعة تستهدف تطوير المناهج و البرامج و حل المشكلات التي يعرفها مجتمع الجامعة باستمرار، و يعد التنشيط في مجال الثقافة و الفكر مطلبا ضروريا إذ أن مهمة الجامعة يجب أن تأخذ في الحسبان تنشيط الساحة الثقافية و النزع نحو خلق جو يسوده النزع الدؤوب للحراك الفكري و الثقافي من خلال تنظيم النشاطات الثقافية و إقامة المحاضرات العلمية و الفكرية التي من شأنها أن تطرح الأفكار للنقد و النقاش الذي يسمح بتلاقح الأفكار و تطويرها، و يسمح كذلك بإثراء المعرفة العلمية التي يفيد منها المجتمع العام كما يفيد منها مجتمع الجامعة من طلاب و أساتذة ، و مهمة التدريس و البحث العلمي هما مهمتان تربويتان ضروريتان حسب عبد السلام و راضية حسين الخزرجي إلى جانب مهمة ثالثة تضمهما معا و هي توظيف مهمتي التدريس و البحث العلمي لتصبح مهام التعليم العالي عندهما ثلاث مهمات أساسية من شأنها أن تؤدي إلى تنمية المجتمع في شتى مناحيه ، على أن هذه التنمية التي يمكن أن تحققها هذه المهام الثلاث ينظر إليها في جانبين :"[18]"

1/ التنمية الشاملة الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية .

2/ تنمية النظام التربوي كوحدة متكاملة (أي تنمية التربية) .

و رغم أن تنمية النظام التربوي متضمن في التنمية الاجتماعية و الثقافية إلا أن الدكتورين عبد السلام و راضية الخزرجي أرادا لهما الانفصال ليوضحا سعي الجامعة لخدمة المجتمع من خلال اتصالها الدائم به و استقصاء مشكلاته باستمرار، و من تم العمل على تجاوزها من جهة ، و من جهة ثانية سعيها للنظر في ذاتها بالمحافظة على هذه الذات و تطويرها من خلال عمليات النقد و التقويم المستمر للمناهج و البرامج ، و العمل على تحقيق كفاءة الجامعة بما يمكنها من السيطرة على مشاكلها الخاصة و الاتجاه بالتالي لمعالجة قضايا المجتمع من مبدأ أن الجامعة لابد أن تكون فاعلة لا منفعلة ، فلا يمكن بأية حال من الأحوال أن تعمل الجامعة على تنمية المجتمع و ذاتها مريضة لا تقوى على النهوض بها ، إن سعيها لتنمية المجتمع يمر حتما بإعادة النظر في نظمها المختلفة و مبادئها و أهدافها و تقويم هذه الأخيرة باستمرار وفقا للمستجدات الاجتماعية و التطورات العلمية و المعرفية .

و يطرح الدكتور مصطفى شريف ثلاث نقاط يرى أنها تشكل الوظائف الأساسية للجامعة ، و هذه النقاط هي :"[19]

1/ تطابق التكوين و الشغل .

2/ إنتاج القيم الثقافية التي تغدي الهوية والشخصية .

3/ إنتاج معايير و أنساق علمية قادرة على وضع مشروع مجتمعي .

هذه المهام الثلاث ينظر إليها مصطفى شريف من منظور التوازن و ضرورة أن تكمل إحداها الأخرى، فرغم أن ثمة اتجاها ينزع نحو تغليب المهمة الأولى نظرا للاحتياجات الملحة للتنمية الاقتصادية و التكنولوجية إلا أنه من الضروري الاهتمام بالمهمتين الأخريين بغرض الاستجابة للاحتياجات الأخرى الضرورية للمجتمع ، و ما يفهم من النقاط الثلاث التي طرحها مصطفى شريف أنه يربط النقطة الأولى بالوظيفة بينما يربط النقطتين الأخريين أكثر بالرسالة التي يجب أن تؤديها الجامعة مع ما لمصطلحي الوظيفة و الرسالة من معنى، فإذا كانت الوظيفة تشمل ما تؤديه الجامعة و ما ينبغي لها أن تؤديه في جميع الجوانب فإن الرسالة ترتبط أكثر بالجوانب المعنوية و القيمية و الروحية، و عليه اقتصر الاهتمام على تكوين الإطارات لشغل الوظائف ، و تغييب مهمتي إنتاج القيم الثقافية المغذية للهوية و المعايير المبلورة لمشروع مجتمعي ، و في هذا تكمن إشكالية الجامعة الجزائرية و أزمتها ، فأزمة الجامعة الجزائرية حسبه " ناتجة عن كون هذه الأخيرة قد منعت من التعبير بوضوح عن الغاية من رسالتها التي ترتبط بمسألة المشروع المجتمعي "[20] ثم يعود الدكتور مصطفى شريف ليربط بين المهمة و الرسالة التي يجب أن تنهض بهما الجامعة الجزائرية بينما يوضح أن الواجب هو " بناء جامعة جزائرية غير خاضعة و لا متمردة بل جامعة قادرة على التعبير عن الوعي النقدي للأمة بإسهامها في الحياة الوطنية ، و أن يحل الالتزام الحر و المسؤول محل الانطواء و الهروب و هجرة الأدمغة "[21] .

و عندما نأتي إلى النظام الداخلي لجامعة الجزائر فإنها تجعل من بعض المهام المنوطة بالجامعة بنية من بنى هذا النظام الذي تتعدد جوانبه ، و لتبين هذه المهام التي يجب أن تضطلع بها جامعة الجزائر نعرضها كما وردت في نظامها الداخلي لعام 2006 و هي:"[22]"

1/ رفع المستوى العلمي و الثقافي و المهني للمواطن عن طريق نشر الثقافة و الإعلام العلمي والتقني و ضمان شروط التطور الحر و المبدع و النقدي و موضوعية المعرفة و احترام تنوع الآراء و تنمية البحث العلمي و التكنولوجي و اكتساب العلم وتطويره و نقل المعرفة .

2/ تسهم الجامعة في ترقية التنمية الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية للأمة الجزائرية عن طريق تكوين الإطارات في كل الميادين و تشارك في الترقية الاجتماعية بضمان تساوي الحظوظ للالتحاق بالأشكال الأكثر تطورا من العلوم و التكنولوجيا لكل من تتوفر فيهم المؤهلات اللازمة .

إن الخوض في مهام الجامعة يجب أن يأخذ في الاعتبار أمرين اثنين هما :المهام التي تؤديها الجامعة فعلا و المهام التي تتطلع الجامعة إلى أدائها، و عندما تخضع المهام التي طرحتها جامعة الجزائر في نظامها الداخلي لهذين الاعتبارين نجد كثيرا من النقاط تندرج ضمن الاعتبار الثاني ذلك أن بعضا من هذه النقاط التي هي مهمات للجامعة مازالت بعيدة عن التحقيق، فعندما نعتبر موضوعية المعرفة على سبيل المثال لا الحصر إحدى مهام الجامعة نصطدم في الواقع بالتيارات الأيديولوجية و المسارات السياسية التي تتجاذب الجامعة إلى مختلف الأطراف مما يشتت المعرفة ذاتها و يجعل من الموضوعية اسما ليس له وجود .

2- الرسالة الأساسية للجامعة :

إذا كانت مهام الجامعة متنوعة و مختلفة في أشكالها و مضامينها فإن الرسالة بشكل عام مرتبطة بالمهمة الحضارية التي تلقى على عاتق الجامعة و أجهزتها فكأننا أمام صورة ذهنية تبرز لنا كيف تعهد الجامعة بمشروع حضارة مجسد في مجموعة من التصورات المعرفية و الأحكام القيمية و الاديولوجية المبررة إلى أفراد الجامعة و المجتمع ، فالرسالة هي التطلع نحو الأمة دون الوقوف عند متطلبات الاقتصاد و التكنولوجيا ، و قد ورد في إحدى المداخلات التي ضمها كتاب فلسفة الإصلاح الجامعي لإدجارفور أن ثمة من الناس من ينظر إلى الجامعة باعتبارها خادمة للاقتصاد فيما يرى آخرون أنها وضعت من أجل تثقيف الناس و لكن المتدخل يستدرك بقوله " إنني أود أن يتضح جيدا مفهوم الجامعة الذي هو ليس بالأرستقراطي و لكنه إسقاط للجامعة على الحياة ، لقد قلتم أن الجامعة ستصبح منفصلة عن الأمة و أنا أجيبكم أن الجامعة هي الأمة تعلم و تتعلم "[23] .

و عندما تنقل الرسالة مشروع حضارة ما فإن الإنسان هو دائما محور ذلك المشروع لأنه صانع هذا الأخير أولا وناقله ثانيا و هو المقصود من تلك الرسالة أخيرا ، إن الجامعة دائما تستهدف صنع المستقبل و يبقى هذا المستقبل رهنا بطبيعة الرسالة التي تؤديها هذه الجامعة ، و يعترف ستيفن د . كيرتز أنه

" لابد أن تقر الجامعة أن الهدف الأخير لها هو الإنسان ، و حياة الإنسان و الرؤية و الواقع المنظور الملموس و النجاح و الإخفاق في تاريخ الإنسان و الذي قد يبدو مسرحيا في كتاباتنا "[24] ثم يمضي كيرتز نحو ضرورة الإقرار بأن رسالة الجامعة لابد أن تأخذ في الاعتبار بناء تصور للحالة التي يجب أن يكون عليها الإنسان عامة و طلبة الجامعة بشكل خاص من خلال تعليمهم للمستقبل حيث يقول " ... و يجب على الجامعة و هي تعلم الطلاب ليعيشوا اليوم و غدا ، ألا تنسى أن تعلمهم للمستقبل البعيد و الذي هو مستقبلهم على هذا الكوكب أو أي مكان آخر ، فالإنسان هو ما يفعله الإنسان ، هنا أو في أي مكان آخر "[25].

إن صنع المستقبل المنشود يمر حتما بصناعة الإنسان بتنشئته اجتماعيا و سياسيا و تشكيله ثقافيا و أيديولوجيا ، و يبقى نجاح هذه الصناعة وقفا على جهود الإنسان الصانع حيال الإنسان المصنوع الذي يمثل المستقبل ، فالإنسان الصانع في الجامعة يمكن أن يمثله الأستاذ كما يمكن أن يمثل الإنسان المصنوع أو مؤشر المستقبل الطالب الخاضع لمنظومة القيم و المعايير التي تحيط به و التي تتبناها الجامعة و تصطفيها كآلية لإعادة إنتاج قيم و معايير جديدة تمثل المستقبل المنظور .

فبناء المستقبل كما نريد وقف على قدرة القائمين على عملية التنشئة الاجتماعية داخل الجامعة من مدرسين و غيرهم على إيصال الرسالة كاملة غير منقوصة إلى الطلاب ، و إيصالها إلى أفراد المجتمع عامة باعتبار علاقتها و دورها حيال هذا الأخير لكي يقوموا بدورهم هم أيضا في المحافظة على سمو الرسالة الناقلة للحضارة قيما و دينا وعلما و أخلاقا .

و في هذا يقول الدكتور محمود السمرة " إن رسالة معاهد العلم أولا و أخيرا هي بناء المواطن الفاعل المنتج المنتمي المبدع ، و لن يتحقق هذا إلا بتنشئته تنشئة دينية و خلقية مستمدة من عقيدتنا السمحة إلى جانب تزويده بالعلم النافع المفيد ، و إذا كان الوطن يأمل في أن يكون الشباب المتعلم قادة المستقبل فإن من البديهي أنه لا يصنع القادة إلا القادة "[26] ، و يوضح محمود السمرة أن مفهوم الجامعة القريب من الأذهان هو مباشرتها تعليم الناس المعرفة و القيم الوطنية الصالحة و قيامها بالبحث العلمي الذي يعزز التنمية الاجتماعية و الاقتصادية و لكن الجامعة عنده أكثر من هذا إنها " عقل الأمة و ضميرها و سندها و ساعدها ضد الجهل و التخلف "[27] ، و محاربة الجهل و التخلف مهمة حضارية نبيلة تضطلع بها الجامعة ، و رسالتها قائمة عليها بالأساس ذلك أن التخلف يجد في الجهل بأسباب الحضارة و قوانينها تربته الخصبة، لذلك فإن الجامعة إذا أرادت أن تؤدي رسالتها فعليها أن تبث الوعي كاملا بأسباب هذه الحضارة و قوانينها، فإذا كانت الجامعة سائرة في هذه السبيل فإنها و الحضارة شيئان لا يفترقان ، أما أن تعمل الجامعة على إعطاء كم من المعارف و البحث في المعلومات المتوفرة و إعادة صياغتها من جديد دون أن تكون لها نقطة بدء و خط نهاية فإن ذلك منهج لا يؤدي إلا لتكريس الجهل حينما تكون النتائج هي إبقاء المتعلمين في الجامعة و خارجها بعيدين عن الوعي بأهداف التعليم و البحث في الجامعة بل

بأهداف الجامعة ذاتها ، و هي نقطة تؤدي إلى أن تحيد الجامعة عن المهمة الحضارية المنوطة بها عندما تصبح غير معبرة عن طموحات المجتمع الذي وجدت لأجله : تلك هي أزمة الخصوصية التي لابد أن تراعى في عملية توصيل الرسالة .

إن المشكلة الأساسية التي أصبحت تحكم الجامعة عندنا كما في بلدان العامل الثالث أجمع هي النظر إلى المشاكل الوطنية و معالجتها بنتائج أجنبية تم التوصل إليها بناء على أسباب و مشاكل أخرى قد تكون مختلفة ، و يوضح هذا الدكتور حامد عمار بعد أن يحدد ما يمكن أن يعد تراثا علميا إنسانيا ، بحيث يؤخذ على هذا النحو و ينهل منه الجميع و يوظفونه باعتباره كذلك ثم يقرر بأن " الأمر يقتضي ألا تصل رسالة الجامعة في أقطارنا إلى هذه الدرجة من التغريب في كثير من المفاهيم و المضامين و الأولويات في مناهجها و نظمها "[28] .

لقد أصبحت المشاكل تحل و الحلول تصاغ و التطلعات تبنى على رؤى أجنبية لا تراعي الخصوصيات المحلية في شيء ، فالانطلاق في تشخيص الواقع و تحليله يكون وفقا لنظريات صيغت في واقع غير واقعنا ،و عليه فإن النتائج تكون بالضرورة قاصرة لأن النتائج لابد أن تصاغ مباشرة من الأسباب لا أن تصاغ هذه النتائج من أسباب أخرى، كأن نقول إن التدخين يؤدي إلى اكتساب ثقافة واسعة في حين يجب القول بأن التدخين يؤدي إلى المرض ، فـ " الأسلوب العلمي الصحيح يلزمنا بالبدء من الذات ، أي من – نحن – من واقعنا محاولين فهمه و تحليله و محاولة إيجاد حلول لمشكلاته ، فإذا قصرت الأفكار و المعارف و الخبرات و الجهود الوطنية و القومية لجأنا إلى النظر فيما لدى – هم – إثراء لما توصلنا إليه – نحن – من خلال معاناتنا للموضوع " [29].

إن المشكلة التي يطرحها الدكتور عمار حامد في هذا المضمار متعلقة في أساسها بنزع الجامعة في بلدان العالم المتخلف بشكل عام نحو توظيف تراث و علم و نظريات و مفاهيم الآخر المتقدم علميا وتكنولوجيا دونما إخضاع لهذا التراث للنقد الواعي و للعقل المحلل الناقد ، هذا التراث العلمي إذا لم يتم توظيفه بهذه الصفة – و هي الحال التي نحن عليها – فإنه لن يزيد إلا في تكريس الجهل و التخلف في بلداننا .

إن المشكلة تصير أعمق حسب الدكتور حامد عمار حينما يقدم هذا التراث للطلاب مقرونا بلفظة "علم " التي تضفي عليه الشرعية و تحبس العقل عن النقد و التفكير في كيفية توظيفه ، في حين كان يجب إخضاع هذا التراث المستورد لمعايير علمية و حضارية تحدد كيفية التوظيف و مجالاته ، فإذا كانت المشكلات و النظريات و المناهج التي يضمها هذا التراث " بالنسبة إليهم – علما – نظرا لاشتقاقها من وعي و خبرة و تأمل في واقع مجتمعاتهم ، فإنها ليست بالضرورة – علما – بنفس المصداقية و الدلالة و المغزى في سياق أوضاع و وعي و إشكاليات مغايرة في واقعنا "[30] .

إن نجاح الجامعة في أداء رسالتها يستدعي مراعاتها لخصوصيات المجتمع من جهة كما يستدعي أن تعمل هذه الجامعة على استدعاء القيم الحضارية للمجتمع التي تعبر عن صميم شخصيته و هويته ، فلا إبداع و لا ابتكار ما لم تكن هناك نقطة بدء هي الأنا ثم العمل بعد ذلك على الاستفادة من التراث العلمي الإنساني بتوظيفه توظيفا واعيا متماشيا و خصوصيات المجتمع .

الهوامش/

[1] - سامي سلطي عريفج – **الجامعة و البحث العلمي** – دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع – عمان ، الأردن – ط 1 – 2001 – ص 21 .

[2] - **نفس المرجع**- ص 20 .

[3] - جوزيف نسيم يوسف – **نشأة الجامعات في العصور الوسطى** – دار النهضة العربية للطباعة و النشر – بيروت - 1981– ص 266 .

[4] - **نفس المرجع**– ص 239 ، 240 .

[5] -– **نفس المرجع**- ص 243 .

[6] - إيدجار فور – **تعلم لتكون** – ترجمة حنفي بن عيسى – اليونيسكو / الشركة الوطنية للنشر و التوزيع – الجزائر- ط2 – 1976 –ص 50 .

[7] - سامي سلطي عريفج – **مرجع سابق** - ص 17 .

[8] - محمد مهيني – **الإدارة الجامعية** – مطابع الرسالة – الكويت – ط 1 – 1984 – ص 14 .

[9] - محمد منير مرسي – **الاتجاهات الحديثة في التعليم الجامعي المعاصر** – عالم الكتب – القاهرة – ط 1 – 2002– ص 7

[10] - عادل زيتون – " العباسيون يرعون العلم و العلماء" – مجلة العربي – وزارة الإعلام – الكويت – عدد 509 – أفريل 2001 م – ص 76 .

[11] - سامي سلطي عريفج – **مرجع سابق** – ص 18 .

[12] - طه الوالي – **المساجد في الإسلام** – دار العلم للملايين – بيروت ، لبنان - دون سنة نشر – ص 164 ، 166 .

[13] - أحمد ظاهر – " فكرة الجامعة " مجلة المستقبل العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – لبنان – عدد 74 – أفريل 1985 – ص 147 .

[14] - مجموعة من الكتاب – **التربية و التعليم في الوطن العربي و مواجهة التحديات** – دار الغرب للنشر و التوزيع – وهران – 2002 – ص 143 .

[15] – **نفس المرجع** – ص 244 .

[16] - **نفس المرجع** – ص 244 .

[17] - محمد منير مرسي – **مرجع سابق**- ص 22 .

[18] - عبد السلام الخزرجي و راضية حسين الخزرجي – **السياسات التربوية في الوطن العربي**- دار الشروق للنشر و التوزيع – عمان – الأردن – ط 1 – 2000 – ص 146 .

[19] - مصطفى شريف – " ملاحظات حول إصلاح المنظومة الجامعية "- حوليات جامعة الجزائر – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – عدد 5 – 1991،1990 – ص 9 .

[20] - **نفس المرجع**– ص 9 .

[21] - **نفس المرجع** - ص 9 .

[22] - دليل النظام الداخلي لجامعة الجزائر – 2006 – الباب الأول – المادة 2 – ص 2 .

[23] - إدجارفور – **فلسفة الإصلاح الجامعي** – ترجمة هشام دياب – مطبعة جامعة دمشق – سوريا – 1973 – ص 83 ، 84 .

[24] - ستيفن د. كيرتز – **دور الجامعات في عالم متغير** – ترجمة عبد العزيز سليمان و إبراهيم عصمت مطاوع – دار نهضة للطبع و النشر – القاهرة – 1975 – ص 19 .
[25] - **نفس المرجع** – ص 19 .
[26] - محمود السمرة " الجامعة و مشكلات العصر " – من هومنا التربوية و الثقافية – سلسلة الدراسات – وزارة التراث القومي و الثقافة – المطابع الذهبية – سلطنة عمان- عدد 1 – 1993 ص 25 .
[27] – **نفس المرجع** – ص25 .
[28] - حامد عمار – **دراسات في التربية والثقافة** – مكتبة الدار العربية للكتاب – مدينة نصر- ط2- 1997– ص 109 .
[29] - **نفس المرجع** – ص 110 .
[30] - **نفس المرجع** – ص 111 .

قائمة المراجع /

- **كتب**

1- إدجارفور – **فلسفة الإصلاح الجامعي** – ترجمة هشام دياب – مطبعة جامعة دمشق – سوريا – 1973.
2-إيدجار فور – **تعلم لتكون** – ترجمة حنفي بن عيسى – اليونيسكو / الشركة الوطنية للنشر و التوزيع – الجزائر- ط2 – 1976 .
3- جوزيف نسيم يوسف – **نشأة الجامعات في العصور الوسطى** – دار النهضة العربية للطباعة و النشر – بيروت - 1981.
4- حامد عمار – **دراسات في التربية والثقافة** – مكتبة الدار العربية للكتاب – مدينة نصر- ط2- 1997 .
5- الخزرجي عبد السلام و الخزرجي راضية حسين – **السياسات التربوية في الوطن العربي**- دار الشروق للنشر و التوزيع – عمان – الأردن – ط 1 – 2000 .
6- ستيفن د. كيرتز – **دور الجامعات في عالم متغير** – ترجمة عبد العزيز سليمان و إبراهيم عصمت مطاوع – دار نهضة للطبع و النشر – القاهرة – 1975 .
7- سلطي عريفج سامي– **الجامعة و البحث العلمي** – دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع – عمان ، الأردن – ط 1 – 2001 .
8- السمرة محمود " الجامعة و مشكلات العصر " – من هومنا التربوية و الثقافية – سلسلة الدراسات – وزارة التراث القومي و الثقافة – المطابع الذهبية – سلطنة عمان- عدد 1 – 1993 .
9- مجموعة من الكتاب – **التربية و التعليم في الوطن العربي و مواجهة التحديات** – دار الغرب للنشر و التوزيع – وهران – 2002 .
10- مرسي محمد منير– **الاتجاهات الحديثة في التعليم الجامعي المعاصر** – عالم الكتب – القاهرة – ط 1 – 2002.
11- مهيني محمد – **الإدارة الجامعية** – مطابع الرسالة – الكويت – ط 1 – 1984 .
12- الوالي طه– **المساجد في الإسلام** – دار العلم للملايين – بيروت ، لبنان – دون سنة نشر .

- **مجلات و مطويات جامعية**

1- زيتون عادل – " العباسيون يرعون العلم و العلماء" – مجلة العربي – وزارة الإعلام – الكويت – عدد 509 – أفريل 2001 م .
2- ظاهر أحمد– " فكرة الجامعة " مجلة المستقبل العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – لبنان – عدد 74 – أفريل 1985.
3- مصطفى شريف – " ملاحظات حول إصلاح المنظومة الجامعية "- حوليات جامعة الجزائر – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – عدد 5 – 1990،1991 .
4- دليل النظام الداخلي لجامعة الجزائر – 2006 .